

النقد الثقافي في الجزائر بين تفكيك أسطورة النظرية الغربية وإمكانات التوطين المعرفي: قراءة في كتاب "بؤس النظرية" لوحيّد بن بوعزيز

Cultural Criticism in Algeria: Between Deconstructing the Myth of Western Theory and the Possibilities of Epistemic Localization – A Reading of Wahid Ben Bouaziz *The Misery of Theory*

* زعيط فريجة¹ / فيصل لحر²

Zait Fariha¹ / Faycel Lahmeur²

مخبر البحث في الدراسات الأدبية واللغوية والتعليمية والترجمة.

جامعة محمد الصديق بن يحيى - جيجل - (الجزائر)

University of Mohamed Seddik Ben Yahia – Jijel – (Algeria)

fariha.zait@univ-jijel.dz¹ / faycal_alahmar@yahoo.fr²

تاريخ النشر: 2026/06/02

تاريخ القبول: 2026/02/10

تاريخ الإرسال: 2025/09/15

ملخص البحث

يُعدّ كتاب "بؤس النظرية" لوحيّد بن بوعزيز، محطة نوعية في مسار النقد الثقافي الجزائري، لما ينطوي عليه من مساءلة جريئة لمرجعيات النظرية الغربية، خاصة أطروحات ما بعد الحداثة وما يُسمى بالنظرية الفرنسية على وجه الخصوص، وانعكاساتها على حقلي الدراسات الثقافية والدراسات ما بعد الاستعمارية، ينطلق الباحث من خلفية معرفية ماركسية غنية، تتقاطع في كثير من مركّزاتها مع التصورات النقدية للناقد الماركسي إعجاز أحمد، وفي سعيه إلى بلورة بديل نظري، يستدعي الناقد أفكار مالك بن نبي ومصطفى لشرف بوصفها مدخلا لبناء وعي نقدي محلي قادر على مساءلة مركّزات النظرية الغربية، ومن هذا المنطلق يقدم المقال قراءة وصفية تحليلية لهذا الكتاب، تكشف رهاناته المعرفية والنقدية، وتستجلي إمكاناته في إرساء أفق مستقل وفاعل للنقد الثقافي في الجزائر.

الكلمات المفتاح: النقد الثقافي، وحيد بن بوعزيز، بؤس النظرية، ما بعد الحداثة، النظرية الفرنسية، إعجاز أحمد.

Abstract :

The book "The Misery of Theory" by Wahid Ben Bouaziz is considered a qualitative milestone in the trajectory of Algerian cultural criticism, as it entails a bold questioning of the reference frameworks of Western theory, particularly postmodern theses and what is known as French theory in particular, and their repercussions on the fields of cultural studies and postcolonial studies. The researcher proceeds from a rich

* زعيط فريجة: zaitfariha@gmail.com

Marxist cognitive background, which intersects in many of its foundations with the critical conceptions of the Marxist critic Aijaz Ahmad. In his attempt to crystallize a theoretical alternative, the critic draws upon the ideas of Malik Bennabi and Mostefa Lacheraf as an entry point for building a local critical consciousness capable of questioning the foundations of Western theory. From this standpoint, the article presents a descriptive-analytical reading of the book, revealing its epistemological and critical stakes, and probing its possibilities in laying the groundwork for an independent and effective horizon of cultural criticism in Algeria.

Keywords: cultural criticism, Wahid Ben Bouaziz, the misery of theory, postmodernism, French theory, Ijaz Ahmed.



مقدمة :

يعد النقد الثقافي أحد أبرز التحولات التي شهدتها الحقل النقدي في النصف الثاني من القرن العشرين، جاء هذا النقد استجابة للحاجة الملحة لتجاوز القراءات الشكلية والبنوية الضيقة التي قيدت النص داخل سياجات مغلقة ما جعله رهين لقراءات جمالية وبلاغية منعزل عن السياقات الثقافية والاجتماعية والتاريخية التي انتجته، عرف هذا النقد انتشارا رهيبا داخل الأوساط الأكاديمية الغربية، قبل أن يتسلل بشكل لافت إلى الساحة النقدية العربية في العقود الأخيرة عبر كتاب الغدامي الرائد في النقد الثقافي.

تلت هذا الكتاب محاولات نقدية جادة سعت لتوطين هذا النقد داخل الحقل العربي وتكييفه مع ما يتناسب والطبيعة الفكرية العربية، إلا أن هذا الانتشار لم يشمل جميع البلدان العربية على غرار الجزائر التي لا تزال تشهد شخا واضحا في الدراسات المعنية بالنقد الثقافي، غير أن ذلك لا ينيي حضور أساء نقدية جزائرية سعت إلى الاشتغال في هذا المجال، ومن بينها حفناوي بعلي، وطارق بوحالة، وسليم حيولة، وفصل لمر، وسلمة مسعودي، وعمر أزراج، ووحيد بن بو عزيز الذي اخترنا كتابه الموسوم بـ "بؤس النظرية: مساءلات في الدراسات الثقافية" مجالا لهذه الدراسة، وقد اخترنا المنهج الوصفي والتحليلي كإجراءين أساسيين في هذه المقاربة.

يسلط هذا الكتاب الضوء على الكثير من القضايا النقدية المعاصرة، من خلال التطرق لأزمة النظرية الراديكالية، وما آلت إليه من انسداد معرفي وفكري بفعل تدخل القوى العولمية، ونقد النظرية الفرنسية ومقولاتها الرجعية، كما تطرقت الدراسة كذلك لقضايا جوهرية في الدراسات الثقافية، على غرار الهجنة والمنفى والترجمة الثقافية والذاكرة والتاريخ، انفتحت الدراسة كذلك على فكر مالك بن نبي في محاولة لإيجاد بديل نظري ينبع من خصوصية التجربة الجزائرية والعربية. ويُسهّم في تأسيس وعي نقدي محلي مستقل قادر على مواجهة التبعية للمركزية الغربية.

فإلى أي مدى يمكن لكتاب "بؤس النظرية" أن يفتح أفقًا نقديًا جديدًا داخل الدرس النقدي الجزائري، وهل يستطيع هذا الكتاب أن يعيد توجيه النقد العربي من اجترار النظريات الغربية إلى مساءلتها وإنتاج معرفة نقدية محلية؟

1. تفكيك النظرية الغربية، قراءة في مشروع وحيد بن بوعزيز:

يتجاوز بن بوعزيز، في بؤس النظرية، حدود الطرح التقريري والمقاربات التقليدية التي سيطرت طويلاً على المشهد النقدي العربي، لينفتح أكثر على وعي نقدي مغاير يسعى إلى كسر الرتابة التي وسمت الممارسة النقدية العربية، تلك التي اكتفت غالباً بشرح النظريات الغربية وتكرارها دون مساءلة إستيمولوجية أو تفكير نقدي منتج. منذ المقدمة، يعلن الناقد أن ما يسمى بـ"النظرية الغربية" دخلت في انسداد معرفي وعقم فكري، نتيجة تغول قوى العولمة التي عملت على تهييط الذائقة النقدية بما يتلاءم مع منطق السوق، إضافة إلى تأثير الأفكار الليبرالية الجديدة التي فرضت رؤية ثقافية مصلحية، توّظف السياسة الثقافية لخدمة نزعتها القائمة على الرغبة والجسد والقوة.

ويذهب بن بوعزيز إلى أن هذا الوضع أسهم في تكريس ما يسميه بـ"استراتيجية الازتياب"، التي سعت لتقيض كل هوية خلاقة من أجل الحفاظ على هويتها القائمة على مفارقة التطابق في الاختلاف، لا يرى الناقد غرابة في التحالف بين العولمة والوضعية ما بعد الحداثية؛ فالأفكار التي روج لها التيار ما بعد الحداثي لم تكن، في نظره، محايدة أو بريئة، بل أعادت إنتاج منطق الهيمنة باليات أكثر تعقيداً. فإعلاء الغريزة، وتفكيك الميتافيزيقا، وتكريس الاختلاف المتوحش، كلها ممارسات أفضت إلى إقصاء كل تفكير نقدي يتجه نحو الأصول أو البدايات، تحت ذريعة الوهم أو الاستحالة (بن بوعزيز، 2023، صفحة 3).

يقيم وحيد بن بوعزيز مشروعه النقدي على جملة من المرجعيات التي تباينت توجهاتها عن السائد في الدراسات العربية، إذ استند إلى كتب نقدية كبرى ووجهت سهام نقدها إلى النظرية الفرنسية وما بعد الحداثة ونظرية الاختلاف، وإلى كثير من المسلمات التي تلقفها النقد العربي دون مساءلة، من أبرزها: ما بعد النظرية لتيري إيفغتون، وفي النظرية لإعجاز أحمد، وشيطان النظرية لأنطوان كومبانيون، وبؤس البنيوية لليونارد جاكسون، والفرنس ثيوري لفرانسوا كيوسي، لقد ساعدت هذه المؤلفات بن بوعزيز على بلورة أفقه النقدي وتوسيع وعيه بالمآزق النظرية المعاصرة، غير أن حضورها ظل محدوداً في الساحة العربية مقارنة بالانتشار الواسع لأسماء مثل فوكو ودريدا ودولوز، وهو ما يكشف - في نظره - خضوع الذائقة النقدية العربية لمنطق السوق الغربي، الذي كرس بعض الأسماء وحجب أخرى. ومن ثم فإن كثيراً من الأفكار التي جرى التعامل معها بوصفها حقائق راسخة ليست سوى أوهام نقدية صنعتها الهيمنة الفكرية الغربية.

ينطلق بن بوعزيز من قناعة راسخة بأن النظرية الغربية لم تسهم في تقدم البشرية، بل عمّقت شقاءها وأزمته، ويرجع جذور هذا "البؤس" من بؤس الفلسفة لكارل ماركس إلى بؤس العالم لبيير بورديو، في إشارة رمزية أن حلقات البؤس لا تزال مستمرة وأن النظرية الغربية رغم شعاراتها الرثانة لم تحقق للعالم الحياة الرغيدة التي كان يحلم بها بل زادت شقاء وبؤساً. يقر الناقد أن هدفه ليس الطعن الكلي في مقولات ما بعد الحداثة، إنما الدعوة إلى التعامل معها بوعي نقدي يقر بجذورها الجزئية ويكشف في الوقت ذاته نقائصها، مع الدعوة إلى تحريرها من هالة التقديس التي كرسها النقاد العرب. وفي مقابل الانبهار العربي بالنظريات الغربية، شمن بن بوعزيز التوجهات الفكرية في الهند وإفريقيا وأمريكا اللاتينية التي ترفع شعار تصفية الاستعمار أو ما يسمى بالديكولونيالية "Decolonial" وهو حقل نقدي نشأ مع

انخرط حركات شعوب الجنوب العالمي أو يسمى بـ Global South كرد فعل على التركز حول المعرفة الأوروبية في سياق الدراسات الاستعمارية وما بعدها. تختلف هذه الدراسات عن دراسات ما بعد الاستعمار في أنها لا تركز فقط على آثار الاستعمار الأوروبي، بل تسعى لتفكيك النظام المعرفي بأكمله الذي أسسه الاستعمار واستمر تأثيره عبر الحداثة الغربية. يرى مفكرو هذا التيار مثل والتر منيولو (Mignolo) وأنيبال كويخانو (Anibal Quijano) أن الاستعمار لم يكن مجرد احتلال عسكري بل مشروعاً معرفياً وثقافياً رسّخ "الاستعمار المعرفي" من خلال فرض اللغة الأوروبية ومفاهيمها ونظائرها القيمي على الشعوب الأصلية. تهدف دراسات تفكيك الاستعمار إلى استعادة طرق بديلة في التفكير والمعرفة من خارج مركزية أوروبا من خلال إعادة الاعتبار للسرديات المهمشة واللغات الأصلية والروابط بين الأرض والهوية. كما تركز على "فك الارتباط" (delinking) بالبنية المعرفية الغربية، والبحث عن طرق تفكير أكثر تعددية بمرجعيات نابعة عن تجارب الشعوب المستعمرة (مصطفى، 2025)

توقف وحيد بن بوعزيز في كتابه "جدل الثقافة" عند إسهامات عدد من النقاد الجزائريين المنخرطين في أفق فكري يمكن إدراجه ضمن المقاربات الديكولونالية. بوصفها تعبيراً عن وعي نقدي مقاوم للمركزية الإمبراطورية. ويرز ضمن هذه الإسهامات مشروع مصطفى لشرف، الذي كرس كتاباته لنقد الاستعمار وتفكيك مركزاته المعرفية والاجتماعية، ولا سيما في كتابه "الجزائر: الأمة والمجتمع"، حيث سعى إلى مساءلة آليات إخضاع المجتمع الجزائري واستعادة الوعي بالذات الوطنية خارج منطق الهيمنة الكولونالية.

إذ يرى بن بوعزيز أنّ ثمة تقاطعاً فكرياً بين مصطفى لشرف وفرانز فانون فلو "حاول أي مشتغل في حقل النقد الثقافي أن يصنع نوعاً من الأليغوريا المعرفية التي تحيل على فكر مصطفى لشرف للاحظ بأن فرانز فانون أقرب مفكر إلى هذا المجاز الفكري. لقد عاش الرجلان الفترة الزمنية نفسها كما عاشا الشرط الكولونيالي بالطريقة نفسها. (بن بوعزيز، 2018، صفحة 74) ويذكر أن إدوارد سعيد قد استعان بمصطفى لشرف في كتابه "الثقافة والإمبرالية" في مقاله المبثوث في كتابه "الجزائر الأمة والمجتمع" الموسوم بـ "سيكولوجيا الغزو"، غير أن إشارته كانت خاطفة لم تول المقال الأهمية اللازمة، يشير الناقد إلى تزامن صدور المقال مع ظهور الدراسات ما بعد الكولونالية، فلم يكتف مصطفى لشرف في كتابه الأول بتأرّخ زمن الاستعمار في الجزائر، بل حاول فهم هذه الظاهرة بالاستعانة بعدة أدوات معرفية من نقد سوسيولوجي ماركسي إلى علم النفس إلى الأنثروبولوجيا (بن بوعزيز، 2018، صفحة 79)

رغم التشابه الكبير بين فكر مصطفى لشرف والدرس ما بعد الكولونيالي إلا أنه لم يتمكن من موضعة فكره ضمن هذا التوجه وذلك للاختلاف الجوهرى في بعض المقولات الأساسية إلا أن بن بوعزيز يصّر على ضمّ فكر هذا الرجل إلى تيار الديكولونالية أو تصفية الاستعمار فهو لا يحزم "بوجود تيار ما بعد كولونيالي واحد يكتسح الساحة، فهناك تيارات لا تعتمد أساسيات ما بعد الحداثة في انطلاقاتها النقدية لمقولات الاستعمار وهي أقرب إلى فكر مصطفى لشرف لأنها ما زالت تؤمن بفكرة بناء الوطن قبل النزوع إلى محوه باسم العالمية والإنسانية (...). إن ما يميز فكر لشرف نزوعه نحو تصفية الاستعمار في التاريخ والثقافة والفكر وعلم الاجتماع، لهذا فهو يكمل مشروعاً ابتدأه محمد الشريف الساحلي في كتاب "تصفية الاستعمار في التاريخ" ويشغل عليه الآن الكثير من المفكرين الأفارقة منهم أخيل مامبي والمفكرة ذات الأصول الهندية آنيا لومبا" (بن بوعزيز، 2018، صفحة 85)

إن استعادة فكر مصطفى لشرف في ضوء النقاشات المعاصرة حول ما بعد الكولونيالية والديكولونيالية يفتح أفقا جديدا لفهم تجاربنا الثقافية والتاريخية. فبن بوعزيز، وهو يضع لشرف في تماس مع قانون، لا يسعى إلى مجرد ربط أسماء، بل إلى إعادة الاعتبار لجهود فكرية محلية حملت منذ البداية مشروعا نقديا لتفكيك الاستعمار وتصفية رواسته في التاريخ والثقافة والهوية. ورغم أن الدرس الغربي ما بعد الكولونيالي هيمن طويلا على الحقل الأكاديمي، فإن خصوصية التجارب المغاربية والأفريقية تفرض ضرورة بناء سرديات بديلة، منفتحة على التراث النقدي المحلي ومتصلة بالمشايخ الفكرية الراهنة في الجنوب العالمي، وهكذا يصبح فكر مصطفى لشرف حلقة أساسية في مشروع نقدي لا يزال يتشكل، مشروع يراهن على تأسيس معرفة نقدية تحررية، تتجاوز أسر التبعية النظرية وتستجيب لشروطنا التاريخية والثقافية.

2. نقد ما بعد الحداثة وسيقاتها الأيديولوجية: قراءة بن بوعزيز في مشروع إعجاز أحمد:

ينطلق وحيد بن بوعزيز في مقارنته النقدية من قناعة راسخة بأن النظرية الغربية، وخاصة ما بعد الحداثة، لا يمكن فصلها عن سياقاتها السياسية والأيديولوجية. فهي ليست إنتاجا معرفيا خالصا، بل هي أسيرة لا وعي كولونيالي مضمّر يعكس مسعى المراكز الإمبريالية لتكريس الهيمنة عبر قوالب فكرية وثقافية. ومن هنا يحذر بن بوعزيز من تلقي هذه النظريات في الفكر العربي بوصفها مسلمات معرفية، دون مساءلة تاريخية أو تفكيك نقدي. وبذلك يدعو إلى ضرورة الكشف عن الخلفية التي أسهمت في تشكيل الخطاب ما بعد الحداثي، فهو لم يولد من فراغ بل هو نتاج لمسارات فكرية وعلمية معقدة. فتيارات ما بعد الحداثة سليله انحسار البنيوية والوجودية والشخصانية، وتمثل في الوقت ذاته عودة قوية إلى أطروحات نثسه وهيدغر وفرويد وقليل من ماركس، وكلهم فلاسفة اتسمت أفكارهم بمناهضة العقلانية. لذا جاءت ما بعد الحداثة بوصفها مساءلة جذرية للذات والمعنى والجسد، ومحاولة لإرساء نزعة أناركية بعيدة عن مفهوم الثورة في صيغته الماركسية (بن بوعزيز، 2023، صفحة 17)

يطرح الناقد تساؤلا جوهريا حول تزامن ازدهار هذه الفلسفات العدمية مع تراجع اليسار وصعود الليبرالية الجديدة. وفي هذا السياق يستند إلى رؤية المفكر الماركسي البريطاني ديفيد هارفي (David Harvey) الذي اعتبر الليبرالية الجديدة مشروعا طوباويا يسعى لإعادة تنظيم الرأسمالية الجديدة وشرعنة كل الوسائل الكفيلة لتكريس هيمنتها. ومن هنا، يؤكد الناقد أن ما بعد الحداثة لم تكن خيارا فلسفيا صرفا، بل خطابا مشبعا بخلفيات سياسية واقتصادية، إذ استمدت كثيرا من أطروحاتها من الفكر الليبرالي الجديدة، ف"لم تكن، حسب الدارسين، هذه التيارات الراديكالية بمنأى عن التوظيف والاستقطاب السياسي الليبرالي الجديد، خاصة مع الذروة التي عرفها الصراع بين المعسكرين في كنف الحرب الباردة، بل يذهب المتابعون إلى أن هذه الفترة تكللت ب بدايات شهر عسل بين التيارات الراديكالية ما بعد الحداثة والمتطلبات المستقبلية للعولمة لليبرالية الجديدة، وأعظم دليل على ذلك استضافة هذه الأفكار في معقل الفكر الليبرالي الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية". (بن بوعزيز، 2023، صفحة 19) يكشف هذا الطرح عن العلاقة المتبسة بين التيارات ما بعد الحداثة الراديكالية والنيوليبرالية، إذ لم تكن هذه التيارات، على الرغم من خطابها الرافض للسرديات الكبرى ولمبدأ العقلانية، بمنأى عن التدخل السياسي، حيث تحولت من مشروع نقدي إلى أداة في يد الليبرالية الجديدة تخدم أهدافها العولمية، فهذا التلاحم المعرفي بين الحقول ليس بريئا، بل هو إعادة أشكال جديدة من الهيمنة، قائمة على التعدد والاختلاف.

وفي المنحى ذاته، يستند وحيد بن بوعزيز إلى كتاب إعجاز أحمد (Aijaz Ahmad) "في النظرية" بوصفه مرجعا نقديا لا يكتفي بتوصيف الخطاب النظري الغربي، بل يضعه في مواجهة صارمة مع النقد الماركسي. إذ يرى إعجاز أحمد أن ما بعد الحداثة، على الرغم من ادعائها الراديكالية، قد انزلت إلى خدمة الليبرالية الجديدة. وهذا ما جعل الناقد يوجه نقدا حادا للتدخل ما بعد الحداثي المشبع بتأثيرات النظرية الفرنسية في الدراسات الأدبية والثقافية، معتبرا أن هذا التدخل أدى إلى انحراف مسار الدرس النقدي وصبغه بطابع بورجوازي أبعد عن النضال السياسي، ويستثمر بن بوعزيز هذه الأطروحات ليكشف عن الانزياحات التي طالت المقولات الماركسية في سياق التنظير الغربي، ولا سيما ضمن ما يعرف بالنظرية الراديكالية "إن الاستحضار الانتقائي لأطروحات ماركسية محددة وماركسيين أفراد مثل غرامشي هو، في هذا الطور الأخير، أمر مميز للنظرية الأدبية الراديكالية عموما، تلك النظرية التي تضم قدرا كبيرا من أولئك الذين يعادون تماما أسسا معينة في النظرية والممارسة السياسية الماركسيين؛ بل إن انتقائية المواقف النظرية والسياسية هي الأرضية المشتركة التي أقيمت عليها النظرية الأدبية الراديكالية، بوجه عام. وليس من غير الشائع، في الحقيقة، أن تقع على نصوص في النظرية الأدبية المعاصرة اعتادات أن تتبنى مواقف ماركسية معزولة وكتابا ماركسيين معزولين في الوقت الذي تنتفض صراحة نظرية الماركسية وتاريخها بوصفها كذلك (أحمد، 2019، صفحة 21)

يعد هذا الكتاب مرجعا تصحيحيا يفضح الكثير من الالتباسات التي شاعت في أوساط النظرية الراديكالية. فهذه الأخيرة، وإن ادّعت وفاءها للمقولات الماركسية، إلا أنها مارست نوعا من الانتقائية في العودة إلى ماركس، حيث تعاملت مع الماركسية بوصفها نظرية معرفية موجهة أساسا نحو مجالي الثقافة والمجاليات، متغافلة عن جوهرها المادي المرتبط بالاقتصاد والسياسة، وهكذا تحوّل النص الماركسي، في الكثير من القراءات الأنغلوساكسونية، إلى مادة فكرية أقرب إلى التجريد النظري منها إلى التحليل المادي للتاريخ والواقع.

يرى إعجاز أحمد أن هذا الموقف ليس غريبا، لأنه يعكس تقاليد الماركسية الغربية التي أعادت إنتاج الفكر الماركسي في أفق تحريفي ذي نزعة برجوازية، فاستبدلت السياسي والنضالي بالإنساني، وأعلنت من شأن التنظير المجرد على حساب الممارسة التاريخية. ومن هنا يوظف بن بوعزيز أطروحات أحمد للكشف عن انحرافات النظرية الراديكالية في السياق الغربي، مؤكدا الحاجة إلى مسائل المرجعيات النظرية بدل التسليم بها كحقيقة مكتملة. إضافة إلى نقده الشديد لما يسمى بالنظرية الراديكالية وعلاقتها الوطيدة بالفكر الامبراطوري.

تطرق إعجاز أحمد في كتابه كذلك إلى عدة قضايا مهمة أثرت النقاش في كتاب بن بوعزيز، مثل قضية "أدب العالم الثالث" من منظور فريدريك جيمسون (Fredric Jameson) الذي فجر قضية المعتمد المكرس Le canon établi والمقصود بالمعتمد "أن في كل حقبة زمنية محددة تبرز مجموعة منمطة من النصوص ترسم المشهد الأدبي العام والمناخ الشامل للمدونات، والعجيب أن هذه المعتمدات حسب النقاد الثقافيين، ليست وليدة حتميات تاريخية بل تتدخل فيها الفواعل الاجتماعية من طبقات محيطة تخدم السلطات القائمة وتساهم في تأييدها بإعادة إنتاجها" (بن بوعزيز، 2023، صفحة 32)

فقد أولى النقاد اهتماما بهذا المعتمد من منظور نضالي صرف، فإذا كان ريموند وليامز قد اهتم بالمعتمدات المغيبة والمقهورة اجتماعيا في سياق أدبي قومي، فإن فريدريك جيمسون ارتقى بفكرة صراع المعتمد إلى مصاف الأدب العالمي،

على الرغم من الاحتفاء الكبير الذي حظيه هذا الناقد من طرف إعجاز أحمد إلا أنه يختلف معه في نظرية العوالم الثلاثة، إذ يرى أنه لا توجد حدود واقعية بين عالم غربي منطور مادي وعالم اشتراكي يعاني من انتكاسات مستمرة وعالم ثالثي يعيش الفقر، فهذا التقسيم يعد ضرباً من الخطاب الذي لا يؤيده الواقع. (أحمد، 2019، صفحة 147)

وفي حديثه عن المنفى أشار وحيد بن بوعزيز إلى الأيديولوجيات المضمرة الكامنة في كتابات المنافي، مؤكداً أن المنفى "لا يشكل موقعاً متعالياً ومثالياً لا يمكنه أن يتأثر بالواقع الاقتصادي والاجتماعي، لهذا حينما يأتي المهاجر من بلده الأصلي إلى المواقع الحاضرة الكبرى فهو مضطر للتوقع الطبقي ولخدمة المصالح البرجوازية الرأسمالية لكي يحافظ على مصالحه". (بن بوعزيز، 2023، صفحة 36)

وقد جاء استحضار رواية العار لسلطان الرشيدي في كتاب إعجاز أحمد لمناقشة قضية المنفى في بعدها ما بعد الحداثي، إذ يشير الناقد أنه ثمة صلة متزايدة بين ما بعد الحداثة وعمليات الاعتماد والتكريس العالم الثالث، فموضوع المنفى أخذ طابعاً إيديولوجياً، إذ لم يعد يحمل الأبعاد الوطنية والقومية بل أصبح أداة لإعادة إنتاج الهيمنة الثقافية، فالكتابات التي أصبحت تبثها المنافي لم تعد بريئة. والمنفى أو الهجرة أصبحت تقدم على أنها شرط انطولوجي لا غير، فسلطان رشدي مثلاً لم يكن منفيًا قسراً بل كان منفاه اختيارياً، حسب فتوى الحميني (أحمد، 2019، صفحة 184). لهذا يرى إعجاز أحمد أن سلطان رشدي، لم يكتب من موقع "المثقف المنفي" المحايد، بل من موقع يعبر عن انسجامه مع أفق الطبقة الوسطى- العليا المهاجرة في الغرب، ونصه مشبع بتمثيلات أيديولوجية لا تنفصل عن الرأسمالية الكولونيالية الجديدة، إذ ينتج خطاباً ملائماً لذائقة القارئ الغربي أكثر من كونه صوتاً نقدياً للمجتمع الباكستاني.

اعتبر إعجاز أحمد أن هذا النوع من كتابات المنافي جعلت من الأدب سلعة في السوق العالمية، إذ تسوق هذه النوعية من الكتابات "العالمالية" بوصفها تمثيلاً أصيلاً عن المجتمعات ما بعد الكولونيالية بينما هي في الواقع تخدم حسب -إعجاز أحمد- نزعة استشرافية معاصرة تعيد إنتاج الهيمنة الثقافية الغربية. يبرز أحمد أن مفاهيم مثل المنفى والهجنة والهوية والاختلاف، قد جرى تفرغها من شحنتها التاريخية والسياسية، وتم توظيفها بطريقة تجريدية ورومانسية، وتحويلها إلى أدوات خطائية طيعة في يد الأكاديمية الغربية، إن كتاب إعجاز أحمد يضع القارئ أمام أطروحة مفادها أن كثيراً ما يسمى "نظرية" ليس إلا إنتاجاً أيديولوجياً يخدم البنية الرأسمالية العالمية.

يضع كتاب إعجاز أحمد القارئ أمام أطروحة مفادها أن ما يُسمى «نظرية» ليس، في كثير من تجلياته، سوى إنتاج إيديولوجي يخدم البنية الرأسمالية العالمية، وقد شكّل هذا الكتاب خلفية مرجعية أساسية لفكر عبد الوحيد بن بوعزيز النقدي، إذ أسهمت أطروحته في توسيع أفقه المنهجي، ودفعته إلى فتح نقاش معمق مع النظرية الأدبية الراديكالية، من خلال مساءلة مرجعياتها الفكرية والفلسفية، وكشف مآلاتها الإمبراطورية. ويتميّز كتاب أحمد بشجاعة نقدية لافتة، تؤكد أنه لا توجد أفكار متعالية على التقويض، وأن إعمال العقل والحس النقدي يظل شرطاً أساساً للتحرر من سحر المقولات النظرية.

3. التاريخ والذاكرة والصفح:

يعد هذا المحور من أهم المحاور التي تطرق إليها وحيد بن بوعزيز، إذ سحب إلى النقاش قضية الذاكرة والتاريخ باعتبارهما موضوعين حيويين داخل الدراسات الثقافية، يشير الناقد أولاً إلى ضرورة التفريق بين الذاكرة والتاريخ ليس

باعتبارهما مجالين منفصلين كلياً، بل للتقاطعات الحاصلة بينهما، فإذا كان التاريخ يصنف ضمن العلوم الإنسانية من حيث انتماءه إلى حقل علمي مضبوط له أدواته المنهجية الخاصة، ومؤسساته الأكاديمية، وخطابه المقيد بصرامة التوثيق والتحقيق، فإنّ الذاكرة مجال أكثر سيولة يندرج – باستعارة مصطلح ريموند وليامز- ضمن ما يسمى بـ"بنية المشاعر"؛ أي ذلك الحقل الوجداني الذي يعكس تمثلات جماعية أو فردية للأحداث الماضية. لكن هذا التمايز، كما يوضح الناقد، ليس جوهرياً بل هو تمايز في الدرجة: فالتاريخ مهما ادّعى العلمية والموضوعية يظل عرضة لتأثر بالعواطف والانحيازات، والذاكرة ينتابها انبناء ذهني قائم على خريطة مفاهيمية. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 66) رغم النسبية التي يتصف بها عمل الذاكرة إلا أنه لا يمكن الانتقاص من قيمتها، فالكثير من الباحثين أصبحوا يفضلون الذاكرة على التاريخ لكونها موضوع أكثر حيوية وواقعية، فهي تشغل مرات حسب آليات عمل الحداد، تحاول بواسطتها جعاعة أو فئة أو طائفة تجاوز صدمة أو معالجة الأوجاع القديمة لكي تلتئم جروح الماضي.

يحذر بن بوعزيز من الطريقة التي يشغل بها الذاكرة، ومن التلاعبات الخطيرة التي تمارسها، إذ أن الكثير من المستغلين على هذا الموضوع يتاجرون بها لصالح إيديولوجية استعمارية تستغل الوضعية لاضطهاد شعب آخر، ويقدم الناقد مثالا بالحرقة اليهودية، التي تحولت إلى مجال للممارسات متباينة: فمن جهة، انخرط المفكرون والفلاسفة اليهود في عمل ذاكراتي غايته تثبيت الوعي بالمأساة، وتخليد الضحايا، وضمان عدم تكرار الكارثة، ومن جهة أخرى حوّلت الحرقة إلى موضوع استغلال سياسي وأيديولوجي، فيما يسميه بعض النقاد بـ"صناعة الهولوكوست"، حيث ضخمت الصهيونية العالمية من حجم المأساة، وسخّرت "الضمير الأوروبي المثقل بالشعور بالذنب" من أجل تبرير اغتصاب فلسطين واستعمار شعب لم يكن له أي دور في معاداة السامية أو اضطهاد اليهود عبر التاريخ. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 68)

نظرا للجرائم الفظيعة التي اقترفتها النازيون في حق الكثير من الشعوب ومنها الشعب اليهودي، فتح النقاش حول الحرقة وعن إمكانية الغفران والصفح، وقد أشار الناقد إلى هذه المسألة من وجهة نظر الفيلسوف الفرنسي اليهودي "فلاديمير يانكليفيتش" Vladimir Jankélévitch الذي رفض فكرة الصّحّ وفكرة التقادم، حيث كتب مقالين حول الموضوع، الأول بعنوان "في كنف الشرف والكرامة" والثاني يحمل عنوان "أن نصّح؟" يرفض هذا الفيلسوف فكرة الصّحّ وذلك لفضاعة الجرائم التي ارتكبت في اليهود وأدرج هذا النوع من الجرائم ضمن ما يسمى باللامكفّر "L'inexpiable". (بن بوعزيز، 2023، صفحة 69، 70) يرى يانكليفيتش أن هذه الإبادة ليست مجرد فصل تاريخي عابر، بل هي جرح أبدي في ضمير الإنسانية، ومن ثم لا يمكن اختزالها في خطاب مؤرخ أو في سردية وطنية، بل ينبغي النظر إليها بوصفها حدثاً فريداً يفرض على الفكر إعادة التفكير في حدود الأخلاق والذاكرة والغفران. وفي سياق الحديث عن قضية الصّحّ وسياسات الغفران، تطرق الناقد إلى قضية الصّحّ بين الجزائر وفرنسا اللذان يجمعها تاريخ استعماري طويل، لا يقل فظاعة عما حدث في حادثة "الهولوكوست" فهل يمكن للجزائر أن تصّحّ؟ وهل يمكن لفرنسا أن تعترف؟

فتح الرئيس الفرنسي الحالي "إمانويل ماكرون" وهو أحد تلامذة "بول ريكور" حسب ما ذكر الناقد، النقاش حول قضية الاعتراف والمصالحة نظرا للوضع المتوتر والمأزوم بين البلدين، كلف ماكرون المؤرخ بن يامين سطورا Benjamin Stora -وهو أحد المختصين في تاريخ الجزائر- بكتابة تقرير حول الذاكرة الفرنسية الجزائرية، قدم سطورا تقريره بداية من يناير 2021، بعنوان "قضايا الذاكرة حول الاستيطان وحرب الجزائر" في شكل اقتراحات من أجل

الخروج من حالة التشنج التي تعيشها الذاكرة المنقسمة، "فقسم تقريره إلى مدخل حاول فيه وضع مسألة الذاكرة في سياقها التاريخي والثقافي، بعد ذلك تطرق إلى التحديات التي تولد عوائق تحول دون معالجة موضوع الذاكرة، ليجرنا فيما بعد إلى الحديث عن المبادرات المحتشمة حول تخفيف وطأة الذاكرة الكولونيالية من قبل الطبقة السياسية في فرنسا، ويختم سطورا تقريره بمجموعة اقتراحات يراها مناسبة لمد جسور التواصل بين الضفتين". (بن بوعزيز، 2023، صفحة 81) إن هذا التقرير حسب بن بوعزيز لم يقدم تصورا جديدا بل هو إعادة لأفكاره السابقة مع محاولة لأخلقتها لتأخذ طابعا يشبه البيانات Les manifestes النضالية المثل.

اعترف سطورا بصعوبة المهمة نظرا للمعوقات التي ستقف سدا أمام قضية الاعتراف والصفح منها صعود اليمين المتطرف وبرز جماعات تستدعي الذاكرة من منظور جاعوي صرف (الضباط الفرنسيين القدامى، وأبناء الحركي والمهاجرين وبقايا الأقدام السوداء وعائلات المفقودين) كل هذه الجماعات لها مطالب تراها مشروعة، اعترف سطورا أن الرئيس إيمانويل ماكرون أكثر جرأة في "فتح ملف الذاكرة حينما اعترف أن الأيدي الإجرامية الفرنسية هي من قتلت عالم الرياضيات موريس أودان والمحامي الجزائري على بومنجل بواسطة التعذيب، وحينما أرجع جاجم الشهداء الجزائريين الذين استشهدوا في القرن التاسع عشر أثناء المقاومات الكبرى للدولة الجزائرية" (بن بوعزيز، 2023، صفحة 84)

يقول بن بوعزيز أنه رغم المحاولة الصادقة من طرف سطورا في إيجاد حل للمصالحة الذاكراتية بين الجزائر وفرنسا، وعلى الرغم من أن بعض العناصر تخص الماضي الفرنسي أكثر مما تخص ماضي الجزائر، مثل قضية الحركي؛ إلا أنه يرى أنه لابد من تحديد أرضية المصالحة على أساس واقعي، بدءا بانتظار التقرير الجزائري. كما أشار إلى التبعية الاقتصادية التي تفرضها فرنسا على الجزائر في شكل استعماري جديد بتحويل الجزائر إلى بلد يقوم على نمط إنتاج كولونيالي، وهذا ما لم يتم ذكره في تقرير سطورا، يدعو بن بوعزيز لعدم تناسي هذا النسق المضمّر في طرح قضية المصالحة، لأن فرنسا مازالت تتعامل مع الجزائر كمستعمرة قديمة، ولهذا فإن تقرير سطورا خاضع لتحديدات خطائية تتدخل فيها السلطة السياسية وفق مصلحة متعددة الأوجه، لهذا فهذه القضية تحتاج إلى عمل طويل ومجدد مضمّن للوصول إلى فضاء مشترك بعيد عن التشنجات الجماعية والمصالح السياسية (بن بوعزيز، 2023، صفحة 86)

4. الترجمة الثقافية واستراتيجية الهيمنة:

يسعى الناقد من خلال هذا المحور إلى طرح قضية الترجمة وعلاقتها بالإمبراطورية في إطار الدراسات ما بعد الكولونيالية. فالترجمة، بوصفها فعلاً عبر ثقافي، يمكن أن تتحول إلى أداة سياسية وثقافية تُستخدم في صناعة الهيمنة الإمبراطورية. فقد ارتبطت الترجمة تاريخياً بمسار الإمبراطوريات، وشكّلت أحد الأعمدة التي استندت إليها القوى الإمبراطورية في نشر خطابها وتعزيز هيمنتها.

إن النص عند بن بوعزيز حَمَال أوجه أثناء تجسيدات التأويلية، فعند الاشتغال على نص مترجم من العربية إلى الفرنسية مثلاً فإننا في قلب الغيرية وهذا الانتقال يفجر أسئلة كثيرة حول استراتيجية التحيزات الحضارية، فالترجمة يمكن أن تكون مرتعاً لتبيين الخلفيات المتوارية وراء هذا الفعل والأسباب التي دفعت المترجم إلى اختيار هذا النص دون غيره، والمسألة تتعدّد أكثر عندما تكون العلاقة بين الثقافة المترجمة والمترجمة علاقة قوة، وذلك في نظره أن الغرب مزال ينظر

للشرق بمنظور مشروط بالتجربة الاستعمارية، التي اخذت مسوغاتها من السجل الإستشراقي الذي ترعرع في أحضان الإمبراطورية. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 88، 89)

وقد أورد الناقد أن جذور سوء الفهم القائم بين الشرق والغرب تعود أساسًا إلى جمل الغرب بحقيقة الشرق، وهو جمل يمكن إرجاع مسؤوليته الكبرى للاستشراق، بوصفه الوسيط الرئيس الذي تولى إنتاج معرفة عن الشرق. غير أن هذه المعرفة لم تكن موضوعية ولا بريئة، بل خضعت لشروط السياق الكولونيالي، فصاغت صورة نمطية ومشوّهة للشرقي، كما ساهمت في تثبيت تصورات مغلوطة عمقت المسافة بين العالمين. ومع تحول الميديا الحديثة إلى القناة المركزية في صناعة الرأي العام، انتقل هذا الإرث الاستشراقي إلى فضاءات الإعلام المعاصر، حيث أعادت الخطابات الإعلامية إنتاج الصورة النمطية نفسها لكن بوسائط جديدة أكثر تأثيرًا وانتشارًا.

وفي سياق الترجمة وعلاقتها بالإمبراطورية استند الناقد إلى "روبنسون دوغلاس" Douglas Robinson صاحب الكتاب "الترجمة والإمبراطورية" إذ حاول هذا الباحث تحديد خطورة الترجمة في الأزمنة الإمبريالية فنوصل إلى أن "الترجمة لعبت دور القناة والوسيط الذي تم بواسطته الهيمنة على الآخر، ولم يكن دوغلاس بعيدا عن الواقع فالتاريخ الكولونيالي يشهد أن المؤسسة الاستعمارية جثت العديد من المترجمين وعبأت العديد من الوسطاء اللغويين لكي تسهل عملية فهم الآخر وترويضه وتدجينه". (بن بوعزيز، 2023، صفحة 95)

تلعب الترجمة في الدراسات ما بعد الكولونيالية - وفق مقارنة دوغلاس - ثلاث أدوار متعاقبة تكشف عن طبيعتها المتلبسة وعلاقتها الوثيقة بالسلطة. فهي أولاً، أداة من أدوات الاستعمار، بالموازاة مع التعليم والسيطرة الصريحة أو المقنعة على الأسواق والمؤسسات وبالارتباط معها، ثانياً، تمارس الترجمة كوسيط لتقليص أشكال عدم التكافؤ الثقافي التي استمرت حتى بعد انحسار المشروع الكولونيالي، غير أنها لا تنفك تكشف عن الفجوات العميقة في التبادل الرمزي بين الثقافات. وثالثاً، يمكن أن تتحول إلى قناة لتصفية الاستعمار، أي وسيلة لإعادة التوازن وإعادة كتابة العلاقة بين الذات المستعمرة والمركز الاستعماري.

ولإيضاح التحيزات الملازمة للفعل الترجمي، يستحضر دوغلاس تجربة "رينشارد جاكومان" Richard Jacquemond الذي بين، عبر دراسة إحصائية لحركة الترجمة بين فرنسا ومصر، أنّ هذه الحركة لم تكن متكافئة، بل كانت تفتقر إلى ما سواه "عدالة التبادلات الرمزية عبر الثقافية". إذ كشفت نتائجها عن وجود "إمبراطورية للترجمة" أعادت إنتاج اللامساواة وساهمت في خلق فجوة سحيقة بين الطرفين. ويؤشر هذا التفاوت على تواطؤ الترجمة مع منطق القوة، بحيث تتحول إرادة الترجمة إلى إرادة للهيمنة، وينتقل الفعل الترجمي في السياق الكولونيالي من كونه ممارسة فردية أو معرفية إلى كونه ممارسة مؤسسية موجهة، تعمل على إعادة إنتاج السلطة وتكريسها. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 95، 96)

أ- من سياسات الترجمة إلى سياسات الحضارة:

يربط الناقد في هذا المحور بين سياسة الترجمة وسياسة الحضارة، إذ أن المعرفة شهدت بعد الحرب العالمية الثانية نقلتين في مجال العلاقات عبر الثقافية، الأولى كانت بعد الصراع بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي الذي عرف انتقالاً في استراتيجيات الهيمنة والتطهير والترويج بواسطة السلاح الثقافي، إذ لم تعد الثقافة بمنأى عن الحرب ولم تصدر أقل قيمة من الحرب الاقتصادية أو العسكرية، وكرس لها المعسكران لوجيستية قوية وكبيرة، ساهمت بدورها في تطهير صورة

الذات إذ شوّهت والتزوج لها خارج المحلية، أو شيطنة صورة العدو الاستراتيجي وشكل كل محاولة توسع ثقافي يروم من خلالها فرض مجاله النداولي.

أما النقطة الثانية فكانت بعد سقوط المعسكر الشرقي، حيث تعلم العالم وفق منظور هيني إمبراطوري، فالليبرالية الجديدة لم تتوقف عند خرافة نهاية التاريخ كما دعا إليها فرانسيس فوكوياما، بل راحت تغذي بمصل دياكتيكي بؤر الصراع في العالم لكي يبقى الصراع والتناقض من محركات التاريخ الأساسية، كما تطرق الناقد إلى مفهوم المواطنة الذي تشكل انطلاقا من رأس مال معلوم احتكاري واستغلالي متحالف مع برجوازيات كولونيالية محلية تساهم كوسيط في تأييد ما يطلق عليه الطبقة البرجوازية المعولة. وبسبب هذا النمو غير المتكافئ في العالم انبرى الكثير من المفكرين والفلاسفة لفضح الطريقة التي تصدر بها القوى الكبرى الهيمنة أفكارها للعالم دون مراعاة الاختلافات الجذرية ودون رد الاعتبار للتشويه، ومرات الاستئصال، الذي يطال الثقافات المحلية.

وفي هذا الصدد يستند الناقد إلى كتاب المؤرخة فرانسيس ستونر سوندرز Frances Stonor Saunders "الحرب الباردة الثقافية، المركزية الغربية وعالم الفنون والآداب"، وقد خصص هذا الكتاب ما يقارب ستائة وأربعة وسبعون صفحة لتتبع الكيفية التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع القضايا الثقافية في العالم المناوئ لأيديولوجيتها. فقد أوضح الكتاب نشأة الأجهزة المخبرية الثقافية، والكيفية التي جندت بها مثقفون وكتاب عالميون بارزون من أجل نشر أفكار معادية للشوعية، سواء عبر الترويج للبرالية أو تشويه الأطروحات اليسارية، كما أبرز الكتاب الدور الحاسم الذي لعبته الترجمة في صناعة الدعاية والدعاية المضادة تحت إشراف الأجهزة الأمنية. (بن بوعزيز، 2023، الصفحات 125-130)

ب. الهجنة والترجمة الثقافية عند هومي بابا:

تعد مقولة الهجنة من أبرز المقولات التي جاء بها هومي بابا، أبرز منظري ما بعد الكولونيالية الذين ساهموا في إعادة صياغة مفاهيم الهوية والثقافة في ظل التداخل بين المستعمر والمستعمر، فقد انطلق من مساءلة التصورات الثابتة للهوية القومية والثقافية، ليبين أنها ليست جوهرًا صلبًا أو معطى نهائيًا، بل بناء متحوّلًا ينشأ عبر مسارات التفاعل والتفاوض بين الذوات والجماعات، ارتكزت دراسة هومي بابا على فضاء المنافي بحثًا عن وضعية الذات التي تعيش بين ثقافتين، يحاول بابا من خلال أطروحته تجاوز النظرة المقارنة القائمة على الصلة التاريخية والبحث عن موقع ثالث لهذه الذات المنشطة، التي تعيش تجاذبات هوية، ومن هذا المنطلق أسس هومي بابا مقولته في الهجنة، التي لا تفهم بوصفها امتزاجًا بين ثقافتين، بل باعتبارها أيضًا إستراتيجية نقدية تزعم مركزية السلطة الكولونيالية، إذ تكشف هشاشتها وتعري تناقضاتها من خلال إعادة إنتاج خطابها في سياقات جديدة، وبهذا المعنى، تتحول الهجنة عند بابا إلى أفق للمقاومة الثقافية، حيث يصبح المقموع أو المستعمر قادرًا على إعادة صياغة موقعه، لا باعتباره تابعًا، بل كفاعل يبتكر معاني جديدة تتجاوز الحدود التي فرضها الاستعمار.

لقد تعرضت أطروحة الهجنة عند هومي بابا إلى نقد واسع في الساحة الفكرية والنقدية، إذ اعتبر وحيد بن بوعزيز أن مقولة الهجنة، التي قدمها بابا كإستراتيجية نقدية في سياق ما بعد الكولونيالية لم تتحقق كأداة لتفكيك البنى الاستعمارية بقدر ما أعيد توظيفها ضمن خطاب العولمة والإمبريالية الثقافية الجديدة، فالهجنة، بدل أن تمثل إمكانًا

للمقاومة وإنتاج فضاءات بديلة - من منظور بن بوعزيز - تحولت إلى رافد أكاديمي يخدم الصرح الإمبراطوري المعاصر، إذ تستثمر لتكريس أشكال أكثر نعومة وخفاء من السيطرة، تقوم على استيعاب الاختلاف وإعادة تدويره داخل منظومة الهيمنة. ومن ثم، فإن ما بدا في أطروحته بابا مشروعا لتحرير الهوية من أسر الثنائيات الكولونيالية، أصبح في الممارسة إحدى الأدوات التي تعقّل ال استراتيجة الاستعمارية بصيغتها الثقافية الجديدة.

ينتقد بن بوعزيز عودة هومي بابا في طرحه ما بعد الكولونيالي إلى فلاسفة الاختلاف، إذ تحضر في ترسانته النظرية مقولات ديريدا وفوكو ودولوز، محاولا بطريقة غريبة جدا، مثلا فعل إدوارد سعيد وغيرتري سبيفاك، أن يجمع بين التراث الماركسي المؤمن بغائية التاريخ كسردية كبرى وبين ما بعد الحداثة، يلاحظ بن بوعزيز أن درجة التيار ما بعد الكولونيالي إلى مواطن ما بعد الحداثة ولد نزعة تحريفية خدمت الامبريالية أكثر مما فككتها. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 138، 139)

وفي سياق قريب من إشكالية الهجنة، تطرّق الناقد إلى نظرية الترجمة عند هومي بابا التي لا تخرج عن الفضاء الثالث، ففعل الترجمة عنده هو تموقع بين ثقافتين وفق مبدأ يقترحه هومي بابا كضرورة وشرط أنطولوجي لهذه الترجمة، هذا المبدأ هو التفاوض الذي يضعه مقابلا للتعارض؛ ففعل الترجمة فيه تنازل من نوع ما لأنه تفاوض، وهذا التنازل هو الذي يضمن فكرة تفكيك كل الأصوليات الشوفينية. يرى هومي بابا بضرورة إعادة النظر في مشكلة الفضاء العالمي من منظور ما بعد كولونيالي، يقتضي أن نزج موقع الاختلاف الثقافي الخاص بفضاء التعددية الديمغرافية إلى التفاوضات الخاصة بالترجمة الثقافية.

ومن هذا المنطلق يصف بن بوعزيز أفكار هومي بابا بالنسبية، فهو لا يفكر في إرساء نظرية في الدراسات ما بعد الكولونيالية انطلاقا من التجربة الاستعمارية، بقدر ما حاول أن يتتبع التداوت ما بعد الكولونيالي باختباره للمواقع الحدية، لهذا اختار المنافي والهجرات لكي يؤسس لنظرية تحتفي بالهجين أكثر مما ترفضه أو تستهجنه، والدارس لفكر هومي بابا - حسب - يدرك أن مفاهيمه لا يمكن تطبيقها على الذات المستقلة التي لم تعيش تجربة المنافي ولكنها ما زالت تعيش آثار الاستعمار، كما أن الاحتفاء بالهجنة - حسب - ثائر ديب، مترجمة كتاب موقع الثقافة - يفضي إلى التفاوض عن الثقافة الوطنية وعن أبناء تلك الثقافة الذين عبر إعلاء متصل للمثقف المهاجر على أنّه مالك الحقيقة كلّها وجمع كل الثقافات، كما يضيف، أن الاحتفاء الشديد بما هو هامشي وأقلوي لمجرد كونها هامشيا وأقلويا، والدفاع العنيد والمتهور عن كل ما يلفظه النظام من نثار وكل ما لا تدججه عقلانيته الحاكمة، ينسب أنّ الهوامش والأقليات اليوم تضم النازيين الجدد، والمأخوذون بالصحن الطائرة، والبرجوازية الدولية، وأولئك الذين يؤمنون بضرورة جلد المراهقين الجانحين إلى أن يسيل الدم من أفخاذهم. (بابا، 2004، صفحة 26، 27)

إن قراءة بن بوعزيز لنظرية هومي بابا تكشف أن نظريته حول ما بعد الكولونيالية هي نظره خاصة بمواطن المنافي وليس بمواطن القوميات التي عاشت المستعمرات من قبل، وهذه النظرية تتعامل مع الترجمة الثقافية من منظور مثالي صرف لا يولي القاعدة المادية في التحليل أية قيمة، تخلق وعيا مشوها ومقلوبا، تريد أن تنعنا من خلاله بأن الحوار مع الميتربول ينطلق من قاعدة تشاركية تضع مبدأ الاعتراف نصب أعينها، وعليه فإن مفهوم الترجمة الثقافية كما فكر فيه هومي بابا بعيد عن الواقع، فهو ينطلق في تحليله من وهم مستتر يعده بديهية، يكمن هذا الوهم في أن طبيعة العلاقة الموجودة

بين الثقافة الأهلية والثقافة الحواضرية هي علاقة ندية. في حين يكشف مفهوم نمط الإنتاج الكولونيالي بأن العلاقة المتواجدة بين الجنوب والشمال هي علاقة تبعية بنوية. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 144، 145)

5. مقارنة ما بعد استعمارية في فكر مالك بن نبي:

يعد مالك بن نبي من أبرز المفكرين الذين ساهموا في صياغة رؤية نقدية للواقع الاستعماري وما بعد الاستعماري، وذلك من قبل أن تتبلور ما يعرف اليوم بنظرية ما بعد الكولونيالية في الفكر الغربي. فقد انطلق من تحليل عميق لآليات السيطرة الاستعمارية، ليس فقط بوصفها فعلا عسكريا وسياسيا، بل باعتبارها كذلك مشروعا ثقافيا ومعرفيا يشتغل على تفكيك البنية الروحية والحضارية للمجتمعات المستعمرة. ومن هذا المنطلق، ركز بن نبي على ما سماه "القابلية للاستعمار" باعتبارها حالة ذهنية وثقافية تجعل الشعوب مستعدة للرضوخ لهيمنة الآخر، وهو مفهوم يوازي في حدته أطروحات لاحقة في ما بعد الكولونيالية مثل "الاستشراق" لإدوارد سعيد أو "الهجنة" عند هومي بابا.

إن ثراء المقولات التي طرحها هذا المفكر جعل وحيد بن بوعزيز يصّر في كل مرة على استحضار أفكاره ومحاولة تطويعها داخل حقل الدراسات ما بعد الكولونيالية، ويستنكر في مقابل ذلك الإقصاء المححف الذي لقيته أفكار بن نبي التي أرجعها إلى سياسة أيديولوجية تكرس أسماء نقدية دون أخرى في لعبة سياسية مكشوفة، رغم أن أطروحات مالك بن نبي جاءت قبل ظهور النظرية ما بعد الكولونيالية إلا أن بعض أفكاره يمكن جعلها بوابة لفهم هذه النظرية وتشكلاتها ومن هذا المنطلق حاول الناقد مقارنة فكر بن نبي بالتركيز على ثلاث عناصر أساسية في فكره وهي المنهج والمنافي والمرأة.

يقترح بن نبي فكرة الفاعلية كشرط لتحقيق الاستقلال وفك أواصر التبعية، فابن نبي حرص كثيرا على استعادة الإنسان المسلم لكرامته الحضارية ولا يكون ذلك إلا بفكرة الفاعلية التي تأتي بالفعل والعمل الجاد، إذ انتقد العلم الذي لا يترجمه عمل، والمعرفة المفرغة من الفعل والعمل، كما دعا بن نبي إلى ضرورة تأسيس علم يساعد في بناء المجتمع ويخلصه من أوجاع الاستعمار وتهيئته للمهمة الحضارية وهذا العلم هو علم الاجتماع التي يراهن عليه في تأسيس فرد ذو فاعلية. كما أن الثقافة حظيت بنصيب كبير في طرح بن نبي، ولا يمكننا فهم مقولة الثقافة عنده إلا بربطها بفكرة الفاعلية.

أما في ناقشه حول مسألة المنافي فكان بن نبي حذرا في تعامله مع هذه الظاهرة، وطرحه - حسب بن بوعزيز - يقترب كثيرا من المفهوم الذي طوره "عبد المالك صياد" حول المهاجر، وهو مفهوم ينطلق من فكرة أن الاندماج خرافة كبيرة، لأن الواقع العنصري في الميتربول والبعد الثقافي سيحولان دون الانصهار في بوتقة واحدة تجمع بين محجري الجنوب وسكان الشمال، بل سيعيش المهاجر غيابا مزدوجا وهو شكل من أشكال الاستلاب الجديد، و انطلاقا من تجربة الاغتراب التي عاشها بن نبي يقر بالمعاناة التي يعيشها المهاجر والفئة الشغيلة المغتربة في فرنسا، رغم الطابع الأخلاقي الذي يغلف هذا النقاش إلا أن بن نبي تفتن لأهمية ولخطورة الهجرة كظاهرة ما بعد استعمارية. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 144، 145)

أما قضية المرأة فشغلت هذه القضية اهتمام الناقد، فالمرأة عند بن نبي لها دور محوري في البناء الحضاري، وذلك نظرا للأهمية البالغة التي تحتلها المرأة في المجتمع، والمرأة في وصف بن نبي أكثر صدقا وفاعلية في البناء الحضارة لأنها لا تعاني من عقدة الاستقلالية الفردية. لقد حاول بن نبي أن يؤصل لنسائية بعيدة عن الصراع الدونكيشوتي في المجتمعات

البطريكية غربا وشرقا، رفض الناقد معالجة قضية المرأة كحالة معزولة لأن ذلك سيفقدتها بعدها الفعلي وقوتها الحضارية. كما يحذر في الوقت ذاته من الحركة النسائية الجزائرية الفنية من الوقوع في فخ المطالبية متناسية الواجب المقدس الذي أنيط بخدمة الوطن والانجرار إلى تقليد نماذج نسوية بعيدة عن تربتها، وهذا الطرح يقودنا إلى العودة إلى مآل الحركة النسوية المعاصرة التي تتخطى في صراعات عدة. (بن بوعزيز، 2023، صفحة 157، 158)

يسعى بن بوعزيز إلى الاستثمار في فكر مالك بن نبي في أفق نقدي يتجاوز حدود التبعية للنظرية الغربية، وذلك من خلال إعادة قراءة مفاهيمه الكبرى مثل "القابلية للاستعمار" و"إشكالية الحضارة" و"فاعلية الثقافة" ولا يأتي استدعائه كرجع تاريخي أو إصلاحي، بل يقترحه بوصفه منبعاً لإمكانية تأسيس مشروع نقدي ثقافي بديل، قادرة على مساءلة البنى الفكرية والاجتماعية من داخلها، بعيداً عن استنساخ الأدوات النظرية الغربية. ومن هذا المنظور، لا يهدف هذا الطرح إلى الانغلاق على الذات أو رفض المكاسب المعرفية للغرب، بل يهدف إلى استعادة الفاعلية النقدية المحلية بما يتيح توازناً في العلاقة بين "المركز" و"الهامش"، ويؤسس لفضاء قرائي مستقل يعترف بالخصوصية الثقافية ويعيد صياغة المفاهيم بما يتلاءم مع الواقع العربي الإسلامي.

خاتمة:

في ختام هذه الورقة، يمكن القول أن كتاب «بؤس النظرية» لوحيدي بن بوعزيز يندرج ضمن المشاريع النقدية التي تسعى إلى مساءلة الأسس المعرفية للنظرية الغربية، ولا سيما الدراسات الثقافية وخطابات ما بعد الحداثة. إذ لا يتعامل معها بوصفها أدوات تحليل محايدة، بل كخطابات معرفة مشروطة بسياقاتها التاريخية والإيديولوجية. وقد نجح الكاتب في كشف ما تنطوي عليه بعض المفاهيم الرائجة من قبيل الهجنة والمنفى والترجمة الثقافية والذاكرة من محاولة سلطوية تعيد إنتاج المركزية الغربية بأشكال رمزية أكثر تعقيداً، مبرزاً تحول عدد من الأطروحات النظرية من منطلقات نقدية إلى آليات للهيمنة المعرفية.

غير أن حدة هذا الموقف النقدي، على أهميته في زعزعة مسلمات هذه النظرية، يظل بحاجة إلى قدر من الموازنة المنهجية، إذ تتسم الدراسة أحيانا بالمبالغة والتعميم في الهجوم الحاد على النظريات ما بعد الحداثية، ولا سيما الفرنسية منها، بحيث يمكن أن ينظر إلى نقده كإقصائي أحيانا، يكاد يحجب إسهامات هذه النظريات وما أتاحته من إمكانات إجرائية أسهمت في تفكيك الخطابات الكولونيالية وكشف علاقات السلطة. كما أن الدعوة إلى تأسيس بديل نظري يستند إلى التراث الفكري المحلي، رغم وجاهتها المعرفية، تطرح إشكالا يتعلق بكيفية تفعيل هذا التراث إجرائيا، ومدى قدرته على مواكبة تحولات الخطاب الثقافي المعاصر دون الوقوع في منطق الإحلال أو القطيعة.

وعليه، فإن أهمية "بؤس النظرية" لا تكمن فيما يقدمه من أطروحات، بقدر ما تتجلى في كونه نصا إشكاليا يفتح أفقا نقديا لمسألة سلطة النظرية، وحدود الكونية، ومشروعية إنتاج المعرفة. وهو، بذلك، يساهم في ترسيخ وعي نقدي عربي أكثر يقظة، يقوم على التفكيك والحوار النقدي، ويسعى إلى إعادة توظيف المنجز النظري العالمي ضمن أفق تاريخي وثقافي أكثر اتزاناً.

قائمة المراجع:

- 1- أحلام مصطفى. (28 8، 2025). منصة إطار. تم الاسترداد من فلسطين في دراسات ما بعد الاستعمار: استقراء النظرية وإشكالات التطبيق: <https://etar.info/GRy>
- 2- إيجاز أحمد. (2019). في النظرية: طبقات، أم، آداب (الإصدار 1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- 3- هومي بابا. (2004). موقع الثقافة (الإصدار 1). (نائر ديب، المترجمون) القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- 4- وحيد بن بوعزيز. (2018). جدل الثقافة: مقالات في الآخرة والكولونيالية والديكولونيالية (الإصدار 1). الجزائر: دار ميم للنشر.
- 5- وحيد بن بوعزيز. (2023). يؤس النظرية: مساءلات في الدراسات الثقافية (الإصدار 1). الجزائر: دار ميم للنشر.